ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلـة أبعاد / مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر
جامعة وهران2 - المجلد 05 - العدد 01 / جوان 2019

العرب والترجمة: بين خصوصية اللغة وكونية المعرفة

Arabs and translation between the specificity of language and the universality of knowledge

د.مصطفى بلبولة*

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف- الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2019/01/05 تاريخ القبول: 2019/05/05 تاريخ النشر: 2019/06/30

الملخص: إن الغرض من هذا البحث هو فحص النظرية القائلة بأن العرب لم يقوموا بدور ذي شأن في مجال نقل العلوم اليونانية، فضلا عن أن يكون لهم دور في إنتاج المعرفة. وتستند هذه النظرية إلى المسافة الفاصلة بين اللغات الهندو. أوربية، التي تنتمي إليها اللغة اليونانية واللغات السامية التي تنتمي إليها العربية. وقد بيّنّا أن هذه النظرية تقوم على أساس إيديولوجي محض، وأنها من تجليات "الإسلاموفوميا العالمة"، وأن الأفكار التي تضمنتها تتعارض مع الحقائق التاريخية. وانتهينا إلى تأكيد أن مسألة اللغة لم تكن عائقا أمام العرب ليوفقوا بين ما تقتضيه خصوصية لغتهم وبين الطابع الكوني الإنساني لحكمة الإغريق وعلومهم.

الكلمات المفتاحية: الترجمة؛ تراتبية اللغات؛ الأسر اللغوية؛ الإيديولوجيا؛ النسبوية اللغوية

Abstract: The purpose of this article is to examine the theory that the contribution of Arabs in the area of transfer of Greek knowledge and scientific output was insignificant. This theory refers to a linguistic criterion according to which the distance between the Indo-European languages and the Semitic languages. We have shown that the foundation of this theory is ideological, and is an aspect of a "scholarly Islamophobia". We came to the conclusion that the language issue was not an obstacle for the Arabs to adapt the specificity of their language to the universal character of wisdom and Greek knowledge.

Keywords : Translation ; Language hierarchy ; Language families ; Ideology ; Linguistic relativitism.

* الباحث المُرسل: mostefabelboula@yahoo.fr / مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر-جامعة وهران2

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

مقدمة:

من الشائع أن العرب كانوا جسرا بين الغرب الحديث والمعاصر واليونان القديمة، فكثيرا ما يذكر أنهم هم من نقلوا علوم الإغريق إلى أحفادهم في الغرب عن طريق الترجمة. غير أن بعض الغربيين، وبخاصة المستشرقين والمهتمين بالدراسات العربية والإسلامية، يبدون تحفظا شديدا على هذه المسألة، فيقللون من الدور الذي أداه العرب والمسلمون في حركة النقل والترجمة، بل إن منهم من ينكر ذلك مطلقا. والتبرير الذي يستند إليه هذا الموقف، هو تلك المسافة التي تفصل بين طبيعة اللغات الهندو. أوربية، التي تعد اللغة اليونانية واحدة منها، وطبيعة اللغة العربية من جهة كونها تنتمي إلى عائلة اللغات السامية. وقد طوروا في هذا السياق فرضيات ونظريات تبدو للوهلة الأولى أنها تكشف عن فساد الاعتقاد بأن العرب والمسلمين لم يكونوا سوى متطفلين على الحضارات الأخرى، وأنهم غير مؤهلين ذهنيا لينتجوا معرفة علمية أو فكرا فلسفيا، بسبب طبيعة تكوينهم الذهني البدائي من جهة، ومن جهة أخرى بسبب طبيعة لغتهم التي تفتقر إلى المقومات الأساسية للإنتاج العلمي والفلسفي من تجريد وقدرة على التحليل إلخ... فحسب هذه النظرية، فإن هذه الذهنية المقترنة بهذه اللغة لا تصلح إلا للشعر والخطابة. بل إن هذا القصور يتعدى الإبداع إلى الترجمة؛ فلغة العرب ذاتها، من حيث بنيتها الداخلية، عاجزة عن نقل المعارف العلمية والتجريدات الفلسفية واستيعابها.

وسنحاول في هذا البحث أن نفحص هذه الفرضيات والنظريات لمقاربة الإشكالية التالية: إلى أي حد سمحت طبيعة اللغة العربية . بشعريتها وبطابعها السامي . بأن ينقل أهلها فلسفة الإغريق وعلومهم الضاربة في التجريد، والمصاغة في لغة هندو. أوربية ذات طبيعة مغايرة؟ وهل استطاعوا فعلا أن يوفقوا بين ما تفرضه لغتهم من خصوصية وبين الطابع الكوني الإنساني لحكمة الإغريق؟

وسنبدأ بعرض التصور الذي يقلل من دور العرب في حركة الترجمة وبعض عناصر الفرضيات والنظريات التي ينكر أصحابها قدرة العرب على الإبداع والترجمة.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

1. المسافة بين طبيعة اللغة العربية واللغة اليونانية حاجز أمام الترجمة:

إن النتائج التي وصلت إليها اللسانيات المقارنة والفيلولوجيا في القرن التاسع عشر كشفت عن وجود "قرابة عائلية بين اللغات"، فظهر بذلك مفهوم "الأسر اللغوية". والمقصود بالأسرة اللغوية هو اشتراك مجموعة من اللغات في أصل واحد تنحدر منه، ويُستدل على وحدة الأصل بين اللغات بالتشابه في البنية على المستوى الصوتي والصرفي والنحوي.

وقد أدى هذا الاكتشاف إلى تصنيف اللغات (البالغ عددها اليوم في العالم ما بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف) إلى مجموعات تسمى "الأسر اللغوية"، يصل عددها إلى ستة عشرة أسرة كبيرة تدخل تحتها ما يقرب من خمسمائة إلى ستمائة أسرة فرعية متفاوتة الانتشار. ومن هذه الأسر، الأسرة الهندو. أوروبية (indo-européenne famille) التي تنتمي إليها اللغة اليونانية، وهي من أكثر الأسر التي حظيت بالدراسة، والأسرة الأفرو . أسيوية (famille afro-asiatique ou chamito-sémitique) التي تنتمي إليها اللغات السامية التي من بينها العربية.

ولكن هذا التصنيف أخذ أبعادا أخرى بنيت عليها بعض الفرضيات والنظريات القائلة بوجود تراتبية بين الأسر الغوية، وبالتالي بين اللغات التي تنتمي إليها، حيث تذهب إلى أن بعضها أرقى من بعض. غير أنه استُنبِط من هذه التراتبية اللغوية تراتبيةٌ عرقية بين الشعوب التي تتكلم هذه اللغات، حيث أصبح يُعتقد أن بنية هذه اللغات تعكس البنية الذهنية والروحية لتلك الشعوب، ويكون بذلك بعضها أرقى من غيرها على المستوى العقلي. ومعظم القائلين بهذه التراتبية يضعون الأسرة الهندو. أوروبية في أعلى الترتيب.

هذه هي الخلفية التي تأسس عليها التصور القائل بأن العرب . انطلاقا من المؤشرات والملامح التي تقدمها لغتهم، بصفتها لغة سامية . لا يملكون المؤهلات اللغوية لترجمة علوم اليونان إلى العربية، ناهيك عن افتقارهم للمؤهلات العقلية للإبداع.

وقد انبرى كثير من مفكري الغرب وفلاسفته للدفاع عن هذه الأطروحة وترويجها، ولعل أكثر الأعمال إثارة للجدل في هذا السياق في الوقت الحالي، الكتاب الذي ألفه

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

سيلفان جوجنهايم (Sylvain Gouguenheim)[1] تحت عنوان "أرسطو في مون . سان . ميشال" (Aristote au Mont-Saint-Michel)[2] سنة 2008. وقد حظي هذا الكتاب بقسط وافر من القبول لدى مؤدي الأطروحة التي تضمنها، كما كان موضوع نقد ورفض لدى معارضيها.

يعتمد سيلفان جوجنهايم (Sylvain Gouguenheim) على بعض المعطيات التاريخية التي يكيفها ويوجهها بصورة تجعلها تعضد أطروحته، كما يلجأ إلى كثير من الاعتبارات اللغوية في بيان موقفه تجاه المسألة. وهذا هو الجانب الذي سنركز عليه هنا.

2. مسألة نقل العلوم القديمة إلى العالم العربي الإسلامي:

يشير سيلفان جوجنهايم في كتابه "أرسطو في مون . سان . ميشال" إلى أن مسيحيي المشرق، لا العرب، هم من نقلوا النصوص الإغريقية إلى العربية. ثم إن هذا النقل لم يكن من اللغة اليونانية إلى العربية مباشرة، بل إن العملية كانت مزدوجة، حيث كانت الترجمة أولا من اليونانية إلى السريانية، ومنها إلى العربية. وفي تأكيده على هذه المسألة التي يتخذها سندا لأطروحته، فإنه يعرضها كما لو كانت حقيقة بقيت مجهولة لمدة طويلة، والواقع هو أنها أمر معروف منذ أمد بعيد، بَيَّنَه الباحثون . عربا ومستشرقون . قديما وحديثا، كابن النديم في القرن الحادي عشر، وأحمد أمين في كتابه "ضحى الإسلام"، ودو لاسي أوليري (De Lacy O'Leary) في النصف الأول من القرن العشرين. وأشهر المسيحيين الذين ترجموا إلى العربية إسحاق بن حنين الذي ورد اسمه بقوة في كثير من المصادر العربية وغير العربية.

وإذا كان بعض المفكرين والمؤرخين الغربيين يقرون بأنه كانت هناك فعلا حركة ترجمة كبيرة نُقلت بمقتضاها معارف الإغريق إلى العربية، فإن آخرين . أمثال جوجنهايم . ينكرون حجم هذه العملية ويقللون من قيمتها، ولا يرون أن تلك الترجمة قد ارتقت إلى مستوى يسمح لنا بالقول إن العرب والمسلمين قد ورثوا معارف اليونان ومنتوجهم الثقافي، لأن ذلك يتطلب ابتداء تشاركا . أو على الأقل تقاربا . في اللغة. ولكن القول بأن

[1] مفكر فرنسي من أصل يهودي، من مواليد 1960، متخصص في تاريخ القرون الوسطى.

[2] عنوان الكتاب (Aristote au Mont-Saint-Michel) مستعار حرفيا من عنوان مقال نشره "كولومان فيولا" (Coloma VIOLA) سنة 1967.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

أمة ورثت معارف أمة وثقافتها لا يعني أنها نقلتها دون تعديل ولا تكييف ولا انتقاء، بل يكفي أن يكون هناك نقل للعلوم والتقنية، وأحيانا بعض العناصر الثقافية. وهذا الذي حصل بالفعل تاريخيا في تعامل العرب والمسلمين مع علوم اليونان وثقافتهم.

ومما يذكره جوجنهايم في سياق دفاعه عن أطروحته، أن فعل الترجمة لا يقتصر على استملاك فكر أجنبي، بل يجب، زيادة على نقل معنى الكلمة، نقل البنى الفكرية لكي تبقى راسخة بإحكام في فضاء لغوي آخر. ولكن هل يُتَصَور أن هذه المسألة يجهلها أي مترجم حتى ولو كان مبتدئا؟ فكل ترجمة تقتضي أن تؤخذ البناءات النحوية والترابطات النصية والسياقية في الحسبان، ناهيك عن أن المترجم المحترف، زيادة على وعيه بضرورة امتلاكه لناصية اللغة . المصدر واللغة . الهدف، يعي كذلك ضرورة تحكمه في المعارف التقنية المتعلقة بالمجال الذي ينتمي إليه النص موضوع الترجمة.

لاريب أن هذا الموقف المشكك في إمكان ترجمة المعارف من لغة إلى أخرى يستند إلى فرضية فلسفية كرستها الرومانسية الألمانية على يد هردر وهمبولدت وأتباعهما، فحواها هو أن كل لغة تحمل رؤية خاصة للعالم من حيث هي تعبير عن روح الأمة التي تتكلمها، فهناك تطابق بين روح اللغة وروح الأمة التي تتكلمها. وقد شكلت هذه الفرضية سندا قويا للإيديولوجيات القائلة بوجود تراتبية بين اللغات يلزم عنه وجود تراتبية بين الأعراق، وعلى هذا تأسست الإيديولوجيا القائلة بتفوق الجنس الآري. وفي هذا المعنى يقول جوجنهايم « في حالة النقل من الإغريقية إلى العربية، فإن إحدى أكبر الصعوبات التي يصطدم بها المترجمون تكمن في الانتقال من لغة هندو . أوروبية إلى لغة سامية والعكس. هذا العائق أكبر من مجرد غياب ألفاظ ملائمة في إحدى اللغتين، لأنه يؤدي إلى الاصطدام بالبنى التركيبية والصرفية للأنظمة اللغوية المعنية، والتي هي ذاتها تدخل في تكوين الخطاطات الذهنية للتعبير والتمثيل...»[1] .

ويبدو جوجنهايم . مرة أخرى . في هذا الطرح كما لو أنه يكشف للعالم حقيقة كانت مجهولة. والأمر ليس كذلك، فمثل هذه الصعوبات تطرح نفسها في كل عملية ترجمة بدرجات متفاوتة مهما كانت المسافة الفاصلة بين اللغة . المصدر واللغة . الهدف ضئيلة،

[1] GOUGUENHEIM Sylvain, Aristote au Mont Saint-Michel : les racines grecques de l'Europe chrétienne, éd. Seuil, Paris 2008, pp. 136-137

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

والمترجمون داخل اللغات الهندو. أوروبية نفسها (كالنقل من الألمانية إلى الفرنسية مثلا) يَعُونَ بوضوح هذه الصعوبات.

إن هذا الموقف الذي يربط بين صعوبة الترجمة إلى العربية . بل استحالتها . وبين انتمائها إلى أسرة لغوية مغايرة في طبيعتها يستند إلى مرجعية إيديولوجية كرستها أطروحة أرنست رينان الذي ذهب إلى أن هناك فارقا جوهريا بين اللغات السامية واللغات الهندو. أوروبية، وهو فارق يعكس اختلافا جوهريا في الذهنية والقدرة على التفكير العقلاني. ويصرح جوجنهايم بأن « المعنى في اللغات السلمية ينبجس من داخل الكلمات، من سجعها ورنينها، بينما في اللغات الهندو. أوروربية، يأتي المعني أولا من نظم الجملة وبنيتها النحوية »[1].

ولكن من الجلي أن في هذا الحكم مغالطة وتزييفا لحقيقة اللغة عموما. فهل الأمر غير هذا في اللغات الهندو. أوروبية ؟ ألا يرتبط المعنى بالوحدات اللفظية حال عزلها؟ وهل اللغات الهندو. أوروبية وحدها مخصوصة بارتباط المعنى بالنظم؟ ففي كل اللغات، مهما كانت الأسرة التي تنتمي إليها، يتوزع ظهور المعنى بين الوحدات اللفظية والنظم، ولا توجد أية لغة تشذ عن هذه القاعدة. وقد خص علماء اللغة العربية هذه الظاهرة بدراسات مستفيضة، وقد أصبحت مؤلفات بعضهم مرجعا أساسيا في هذا الشأن. ومن أشهر ما كتب في هذا الباب، أعني باب النظم، "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، الذي بين فيه أن المعنى في اللغة تابع للنظم لا للّفظ، بل غن ترتيب الألفاظ في النطق تبعٌ لترتيب المعاني في الفكر. فهو يقول : « اعلم أن ما ترى أنه لابد من ترتُّب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص، ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة، من حيث إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها. فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للّفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق. فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ، أو أن

[1] Ibidem.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

تحتاج بعد ترتيب المعاني لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن ووهم يُتَخيل إلى من لا يوفي النظر حقه ».[1]

إن القول بوجود تراتبية بين الأسر اللغوية، بحيث يكون بعضها قادرا على التجريد وعلى استيعاب العلم والمعرفة، هو قول يخفي الاعتقاد بوجود تراتبية بين الأعراق والشعوب، ليكون بذلك العنصر السامي قاصرا عن إنتاج العلم واستيعابه. وبالتالي فإن الشعوب السامية، بلغاتها ذات الطابع الشعري، وببعدها عن التجريد وارتباطها بالمحسوسات، لا تستطيع استيعاب المعرفة التي أنتجتها العبقرية اليونانية التي يميزها التفكير العقلاني الصارم. وهذه هي، تحديدا، الفكرة التي يدافع عنها أرنست رينان في كتابه " histoire générale et système comparé des langues sémitiques ".

ففي الوقت الذي يصف فيها اللغة العربية، بصفتها لغة سامية، بأنها مرتبطة بالجانب الحسي للعالم، وأنها لا ترقى إلى التجريدات الميتافيزيقية، فإنه يقصد بذلك أن هذه اللغة والأمة التي تتكلمها ما زالت تعيش المرحلة البدائية للإنسان.

ويذهب رينان، ومن بعده جونهايم، إلى أن اللغة العربية، هي لغة الشعر فحسب. ومعنى هذا أن هذه الطبيعة الشعرية للغة العربية تبقى ملازمة لها في كل زمان مهما كان النص الذي يكتب بها، ومهما كان موضوعه وكاتبه. ويكتب رينان في هذا المعنى أن « لغة الساميين شعرية وغنائية أكثر منها خطابية وملحمية. ففن الخطابة، بمعناه الكلاسيكي، كان دائما أمرا مجهولا لديهم. فَنَحْوُ الساميين لا يكاد يعرف فن ربط أجزاء الجملة. فهو يكشف عن نقص واضح في ملكات الاستدلال لدى الجنس الذي أنشأها...»[2].

ولكن هل هذا يعني أن اللغة التي يبدع أصحابها في الشعر، عاجزة عن كل شيء غيره؟ إن نفي القدرة على الإبداع الفلسفي والعلمي عن لغة ما بسبب كونها لغة شعرية ليس مبررا تاريخيا. فكل اللغات لها تاريخ، واللغة اليونانية نفسها، قبل كتابات أفلاطون وأرسطو، هي التي نقلت إلينا أشعار هوميروس. فكل إنتاج فلسفي وعلمي، في أي لغة كانت، ومهما كانت الأسرة التي تنتمي إليها، يتطلب . على المستوى اللفظي

[1] الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، ص. ص. 52 - 53.
[2] RENAN Ernest, Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, (troisième édition, revue et augmentée) éd. Michel Levy Frères, Paris, 1863, p. 20.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

والتركيبي والأسلوبي . إعدادا بطيئا يرتبط بالتاريخ الاجتماعي والثقافي لهذه الأمة أو تلك، وليس الأمر متعلقا بطبية اللغة ذاتها.

إن ما يذهب إليه أرنست رينان ليس ملزما من الناحية العلمية، ولا يعتبر سلطة معرفية يمكن الاطمئنان لها، وذلك إذا عرفنا أن معرفته باللغة العربية كانت ضعيفة جدا، عكس معرفته بالعبرية التي أتقنها، وذلك باعتراف منه هو شخصيا فهو يقول في "ذكريات الطفولة والشباب"، « كل ما أنا أتصف به باعتباري عالما، فإنما أدين به للسيد لوهير Le Hir. ويبدو لي أحيانا أن كل ما لم أتعلمه منه، فإني لم أعلمه جيدا أبدا. فهو مثلا لم يكن ضليعا في العربية، ولهذا السبب، بقيت أنا دائما مستعربا ضعيف المستوى »[1].

إن المقابلة بين العلم والفلسفة من جهة وبين الشعر من جهة أخرى مقابلة يجب الحسم فيها ابتداء، فقد بين" جون لادميرال" Jean Ladmiral « أن هناك ما لا يقبل الترجمة وهناك ما يقبل الترجمة: من جهة هناك الشعر، ومن جهة أخرى هناك العلم. والباقي؟ في الواقع ليس هناك باق. لأنه يجب أن نفهم حَدَّيْ المقابلة بمعنى موسع بحيث يشملان مجموع الخطابات الممكنة »[2].

إن هذا التقسيم الثنائي لما هو قابل للترجمة وما ليس كذلك، إنما يبرز التضاد بين ما هو خاص بلغة معينة وبكيفية تمثيلها للأشياء من حيث إن ذلك مرتبط بخصوصيتها الثقافية وبين ما هو كوني فيها، وهذا البعد الكوني فيها هو الذي يكون قابلا لأن يتشارك فيه البشر عن طريق الترجمة. وبالتالي، فإذا وسمنا اللغة العربية بالشعرية، فإن ذلك ليس سوى بعدها الخاص الذي قد يكون عصيا على الترجمة، ولا يشكل جوهرها الذي يجعلها غير قادرة على التجريد واستيعاب العلوم. ومع ذلك يصر جوجنهايم على «أن الفروق بين النظامين اللغويين [= النظام الهندو. أوروبي والنظام السامي] كبيرة إلى درجة أنها تعيق كل ترجمة، ما دام المدلول معرضا لأن يغير معناه عند انتقاله من لغة إلى أخرى»[3].

[1] نقلا عن عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط.3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص. 311.
[2] LADMIRAL Jean-René, Traduire : théorèmes pour la traduction, éd. Gallimard, 1994, p. 106.
[3] GOUGUENHEIM Sylvain op.cit. p.137.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

وليس صعبا أن ندرك أن قول جوجنهايم هنا ليس سوى إعادة لقول رينان «إن الوحدة والبساطة التين تميزان العنصر السامي توجدان في لغاتهم السامية ذاتها. فالتجريد غير معروف لديهم، والميتافيزيقا مستحيلة.»[1]، وإعادة لقوله في المقام نفسه إنه « يمكن القول إن اللغات الآرية، مقارنة باللغات السامية، هي لغات التجريد والميتافيزيقا في مقابل لغات الواقعية والحس»[2].

إن هذه الفكرة تتأسس على مجموعة من المفاهيم التي بنيت عليها بعض الفرضيات اللغوية، وبخاصة فرضية النسبوية اللغوية التي صاغت بمقتضاها الرومانسية الألمانية أطروحتها في اللغة، وتناولها في أمركيا وورف وسابير والتي أصبحت تعرف بفرضية "وورف . سابير". وأهم هذه المفاهيم مفهوم "رؤية العالم" ومفهوم "روح الأمة " ومفهوم "البنى الفكرية" ومفهوم "مقولات اللغة ومقولات الفكر". إنها مفاهيم تنتهي كلها إلى القول بوجود تراتبية لغوية تعكس تراتبية عرقية بين الأجناس على مستوى البنية الذهنية والتفكير العقلاني المنطقي.

إن القول بوجود تراتبية بين اللغات يؤول في الحقيقة إلى محاولة تبرير وجود حاجز نوعي بين اللغات السامية واللغات الهندو. أوروربية، وبالتالي فإنه قول الغرض منه أن ينفي مبدئيا استحالة نقل التراث الفلسفي والعلمي الإغريقي إلى اللغة العربية، وبالتالي تقويض الحقيقة المعروفة تاريخيا بأن العرب والمسلمين قد أدوا دورا ذا شأن في نقل التراث الإغريقي إلى أوروبا المسيحية، وهذا . على وجه التحديد . ما يصرح به جوجنهايم: « إن أي نص فلسفي وأي استدلال علمي لا يمكنهما أن يَسلَما جراء تلك التغييرات المتكررة »[3].

إن هذا التصور المبني على النسبوية اللغوية يتعارض مع إمكان الترجمة، وبالتالي مع إمكان تَشَارُك اللغات في مضامين معرفية ذات طابع كوني. ولهذا وجب أن نفحص عن كثب مسألة إمكان الترجمة، حيث شكلت هذه الأطروحة . أعني استحالة الترجمة . موضوع بحث دقيق لدى كثير من الألسنيين المعاصرين في القرن العشرين من مختلف المدارس. وإذا كان بعضهم يبدي تحفظا تجاه الترجمة المقبولة تماما لبعض النصوص

[1] RENAN Ernest, op. cit. p.18
[2] Ibid. p. 22.
[3] GOUGUENHEIM Sylvain op.cit. p.18.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

كالشعر مثلا، فإنهم في المقابل مجمعون على قابلية الترجمة للمحتويات المفهومية بين اللغات، ومنهم يكوبسون الذي يقول « إن غياب بعض القواعد النحوية في اللغة . الهدف لا يمنع أبدا من الترجمة الدقيقة لمجموع المعلومات المفهومية المتضمنة في الأصل[...] فإذا لم تكن مثل هذه المقولة النحوية موجودة في لغة معينة، فإن معناها يمكن أن يترجم في هذه اللغة باستعمال بعض الأدوات اللفظية »[1]. فكل ما يمكن قوله في لغة ما يمكن قوله في لغة أخرى.

إن أطروحة النسبوية اللغوية تقضي بأن مقولات الفكر مشروطة بمقولات اللغة التي تعبر عنه. وقد قدم إميل بنفينيست في هذا الشأن تحليلا مستفيضا في مقال تحت له تحت عنوان « مقولات الفكر ومقولات اللغة » بين فيه أن مقولات أرسطو العشر ليست في واقع الأمر سوى المقولات النحوية للغة الإغريقية. ولكن ألا يعني هذا أن الفلسفة . عوضا أن تكون إبداعا حرا . فهي مشروطة ومحددة ببنى لغة معينة؟ ثم ألا يعني هذا أيضا أن الميتافيزيقا الغربية التي تجد جذورها في اللغة الإغريقية ليس بإمكانها أن تطمح إلى أي ضرب من الكونية؟

إن بنفينيست نفسه، وهو الذي أكد على الترابط الموجود بين مقولات اللغة ومقولات الفكر، يحتاط لنفسه من جهة أخرى حتى لا يقع في فخ الدوغمائية، فيقول «إنه لواقع أن الفكر، عندما يخضع لمقتضيات المناهج العلمية، يتبنى المسالك نفسها لوصف التجربة مهما كانت اللغة التي يختارها [...] فليس هناك أي نمط من اللغة يستطيع بذاته ولوحده أن يعين الروح في نشاطها أو يعيقها. فانطلاق الفكر مرتبط ارتباطا وثيقا بقدرات البشر وبالشروط العامة للثقافة وبنظام المجتمع أكثر مما هو مرتبط بالطبيعة الخاصة للّغة »[2]

أما الأطروحة القائلة بأن العرب لم يترجموا علوم الإغريق وفلسفتهم بسبب عقليتهم البدائية العاجزة عن استيعابها، وأن المسيحيين هم الذين ترجموا تلك النصوص من

[1] نقلا عن: Djamel KOULOUGHLI, langues sémitiques et traduction, critiques de quelques vieux mythes, in : Les Grecs, les Arabes et nous, enquête sur l'islamophobie savante, s/d de Philippe BUTTGEN, Alain LIBERA, Marwan RASHED, Irène ROSIER-CATACH, éd. Fayard, Paris, 2009, p. 97.

[2] BENVENISTE Emile, problèmes de linguistique générale, éd. Gallimard, 1966, p. 73-74.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

الإغريقية إلى السريانية ومنها إلى العربية، أقول إن هذه الأطروحة تضعنا أما مفارقة عويصة: ما الذي جعل هؤلاء المسيحيين يترجمون إلى العربية وهم يعرفون إما لغة الإغريق التي هي لغة ثقافتهم، وإما السريانية التي هي لغة التواصل اليومي عندهم؟ فليس هناك أي مبرر . حسب منطق هذه الأطروحة . للنقل من السريانية إلى العربية إلا إذا كان هناك جمهور عربي اللسان كان مهتما باستقبال النصوص الإغريقية.

ثم إن الأطروحة التي تستند إلى التباين الجوهري والمسافة الفاصلة بين اللغة والعربية واللغة الإغريقية لتقول باستحالة استيعاب اللغة العربية لفلسفة الإغريق هي أطروحة متهافتة، لأن القائلين بهذا لا ينفون النقل من اللغة الإغريقية إلى اللغة السريانية وهم لا ينكرون أن اللغة السريانية قريبة جدا من العبرية والعربية. فكيف يكون النقل إلى هذه ممكنا وإلى تلك مستحيلا وهي تنتمي كلها إلى أسرة لغوية واحدة؟ فإذا كان التواصل بين اللغات الهندو . أوروبية واللغات السامية مستحيلا، فإن ذلك يجب أن ينطبق على كل الحالات. ولهذا، فإذا ثبت النقل من الإغريقية إلى السريانية، فإن القول باستحالة النقل من أسرة لغوية إلى أخرى متناقض. وقد أصبح من البديهيات التاريخية أن النقل إلى العربية حصل فعلا وبشكل مكثف. فهذه كتب التاريخ تروي أن المأمون أمر الحجاج بن مطر وابن البطريق وسَلَماً (صاحب بيت الحكمة) بإحضار الكتب من عند ملك الروم وأمرهم بنقلها. وكانت الكتب المختارة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والحساب والطب. وقد استخدم المأمون عددا من المترجمين في بيت الحكمة وأشهرهم حنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن حنين وابن أخيه حبيس بن الحسن.

وقد صاحب النقلَ تهذيبٌ للكتب بالحذف والتعديل والشرح والتأويل حتى تلائم الروح العربية والإسلامية. ولكن . كما يقول زكي نجيب محمود . « إلى أي حد استطاع العلم المنقول أن يسري في العقل العربي سريان الزيت في الزيتونة، أم ترى يصدق قول من قال عن الثقافة اليونانية وما تركته من أثر حين نقلت إلى العرب، بالقياس إلى أثرها حين نقلت بعدئذ إلى أوروبا، من أنها وهي في أوروربا صادفت ناسا من جنس أهلها، فكأنها أضافت عددا إلى أصحابها، وأما وهي بين أيدي العرب فقد صادفت ناسا اختلفوا

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

عن أهلها، وثقافة تباينت معها أصولا وفروعا »[1]. فهل الأثر الذي تركته الثقافة اليونانية عندما نقلت إلى العرب كان في مستوى الأثر الذي تركته عندما نقلها العرب إلى الغرب الحديث؟ الواقع أن الأمر يختلف، لأنها في الحالة الثانية كما لو أنها انتقلت إلى أسرة شبيهة بها وشيجة الروابط بها.

لاشك أن حركة الترجمة النشيطة التي عرفها الفضاء العربي الإسلامي في عصره الذهبي قد كان لها أثر بالغ في نسيج الثقافة العربية الإسلامية. ولكن هل بلغ ذلك التأثير ما بلغته ثقافة اليونان عندما نقلت إلى أوروبا بعد ذلك؟ يذهب زكي نجيب محمود إلى أنه « بينما لقيت اليونانية عند نقلها إلى العرب أفكارا تباين أشد التباين الأفكار التي تحملها تلك الثقافة اليونانية المنقولة، نستطيع القول بأنها عندما نقلت . عن طريق العرب . إلى أوروربا، لم تجد أمامها فكرا يعارضها ويباينها، بل وجدت ناسا هم من جنس الناس الذين كانوا مبتكري تلك الثقافة اليونانية الأولى وخالقيها، فكأنما هي في هذه الحالة الثانية قد انتقلت إلى أسرة أخرى وشيجة الروابط . من حيث وجهة النظر. بالأسرة اليونانية، أما في حالة النقل إلى العرب،ى فالنقلة جاوزت مجرد الانتقال من فرع إلى فرع في شجرة حضارية واحدة، لتكون نقلة من حضارة تنطبع بطابع معين إلى حضارة مختلفة في طابعها أعمق اختلاف »[2].

ولا يشير زكي نجيب محمود إلى تلك الترجمة المزدوجة من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية، بل إن حنين ابن إسحاق كان يترجم من اليونانية إلى العربية، « فما أن أقيمت دار الحكمة لتكون مركزا لنقل علوم الأوائل، وخصوصا علوم اليونان، حتى وضع حنين في أنسب مكان يوضع فيه، ليعمل أحب عمل إليه، فنكب الرجل على ترجمة المؤلفات اليونانية انكبابا، حتى أنه في فترة وجيزة، كانت العربية قد ظفرت على يديه بالجزء الأكبر من مؤلفات جالينوس وهيبوقراطس وبطليموس وإقليدس وأرسطو وغيرهم»[3]

ولكن هل نقل العرب، وهم يترجمون منا اليونانية إلى العربية، نظرة ثقافية غير نظرتهم، بحيث ظهرت آثار ذلك في ميادين حياتهم العملية ؟ يعتقد زكي نجيب محمود

[1] نجيب زكي محمود، المعقول واللامعقول، ط4، دار الشروق، القاهرة، 1987، ص. 113.
[2] المرجع نفسه، ص. 120.
[3] المرجع نفسه، ص. 114.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

«أنهم لم يفعلوا إلا إلى حد ضئيل، وفي ميادين قليلة، بحيث مست نفرا قليلا من الناس، وبقي الجمهور الأكبر على ثقافته العربية وقيمه العربية ونظرته العربية: يعطي الأولوية للشعر وللغة وللدين عقيدةً وشريعةً »[1]. ومعنى هذا، أن الترجمة من لغة إلى لغة لا تعني بالضرورة نقل رؤية العالم التي تحملها اللغة . المصدر إلى اللغة . الهدف، وإن كان التفاعل بين هذه وتلك أمرا لا يمكن إنكاره. وإذا كان ذلك كذلك، فإن القول باستحالة الترجمة من لغة هندو. أوروربية إلى لغة سامية وتبريره بعائق نقل الثقافة المرتبطة بها ورؤية العالم التي تحملها قول متهافت.

إن الصعوبات المتعلقة بالترجمة حقيقة ثابتة في مجال الشعر خاصة، وليس الأمر كذلك لما يتعلق الأمر بالمضامين المعرفية الأخرى. وقد انتبه بعض علماء العرب وأدباؤهم القدامى إلى هذه المسألة. فقد ذكر الجاحظ، وهو من هو في اللغة والأدب، ما يؤكد أن العرب ترجموا نصوص الحضارات المجاورة لهم، مع انتباهه إلى أن ترجمة الشعر تكاد تكون مستحيلة، فهو يقول: « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب؛ والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حول تقطع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب... وقد نُقِلت كتب الهند، وتُرجِمت حكم اليونانية، وحُوِّلت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسنا، وبعضها ما انتقص شيئا، ولو حُوِّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو حولوها لم يجدوا معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبه»[2].

ومما يشهد على نشاط حركة الترجمة في عصره قوله، « إن الترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيّها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجري، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها، مثل مؤلف الكتاب وواضعه»[3]. وكلام الجاحظ هذا لا يختلف في شيء عما يقوله اللغويون

[1] المرجع السابق، ص. 120.
[2] الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ج1، ط2، 1965، ص. 75.
[3] المرجع نفسه، ص. 76.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

والفلاسفة اليوم بشأن صعوبة الترجمة . بل استحالتها أحيانا . وما ينجم عنها من تشويه للمعنى وتحريف له.

ولكن صعوبات الترجمة التي يتحدث عنها الجاحظ وغير الجاحظ تخص مجالات الشعر والأدب بخاصة، أما في مجال العلم، فالأمر يختلف. وسبب ذلك أن الشعر والأدب عموما ينبثقان من أعماق روح الشاعر والأديب، وبالتالي فهما يعكسان أكثر الجوانب خصوصية لديه، في حين أن العلم هو نتاج العقل الموضوعي الذي يشكل قاسما مشتركا بين البشر، وبالتالي، فإن نقله من لغة إلى أخرى لا يصطدم بتلك العوائق التي تفرضها لغة الشعر والأدب.

الخاتمة:

إن المؤرخين المتخصصين في تاريخ الحضارة الإسلامية، والمستشرقين الذين نأوا بأنفسهم عن الأطروحات التي تؤطرها الاعتبارات الإيديولوجية وتوجهها ، لا يبخسون العرب والمسلمين حقهم فيما يخص إسهاهم الضخم في نقل علوم اليونان وحكمتهم إلى العربية التي كانت هي بدورها جسرا انتقلت منه تلك العلوم إلى أسلاف اليونان في أوروبا. فقد شكل "بيت الحكمة" في بغداد ما يشبه خلية النحل، حيث كلف المأمون فريقا من "العقول" بنقل كتب الفلسفة والهندسة والموسيقى والحساب والطب، وكان للأسرة المسيحية المؤلفة من حنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن حنين وابن أخيه حبيش بن الحسن باع كبير في إنجاز هذه المهمة . وقد كانت للأول المكانة العليا ضمن هذه المجموعة، حيث « انكب الرجل على ترجمة المؤلفات اليونانية انكبابا، حتى أنه في فترة وجيزة، كانت العربية قد ظفرت على يديه بالجزء الأكبر من مؤلفات جالينوس وهيبوقراطس وبطليموس وإقليدس وأرسطو وغيرهم »[1].

ومعنى هذا أنه إذا لم يكن بوسعنا إنكار صعوبة ترجمة الشعر والأدب من لغة إلى أخرى، فإن ذلك لا يسري على نقل الفلسفة والعلم، لأن قوامهما العقل الصرف والمنطق الخالص، وهذا بالضبط ما يمنح للمعرفة طابعا الكوني وإمكانية انتقالها من لغة إلى أخرى.

[1] محمود زكي نجيب، المعقول واللامعقول، ص. 114.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

ومن جهة أخرى، فإذا كانت كل لغة تملك خصوصيات جوهرية مرتبطة بروح الأمة التي تتكلمها، وبالتالي تعكس "رؤية خاصة للعالم" لديها، فإن ذلك لا يتعارض مع وجود بعد كوني يسري في كل اللغات، وهو البعد الذي يعكس وحدة الإنسانية، ولا غرابة حينئذ أن لفظ "اللوغوس" في اللغة اليونانية ذاتها يعني من ضمن ما يعني العقل كما يعني اللغة.

ولعل الفرق في درجة التأثر بتلك الثقافة المنقولة بين أحفاد اليونان وبين العرب . كما أشرنا إلى ذلك من قبل . هو الذي أوحى للقائلين بأن العرب لم ينقلوا علوم اليونان وفلسفتهم إلى العربية، فبَنَوْا نظريتهم على تخمينات هشة، فقالوا بعدم ملاءمة الذهنية العربية للعلوم العقلية وعدم قدرتهم على استيعابها، ناهيك عن عجزهم عن إبداعها، وقالوا بعدم قابلية لغتهم للتعبير عن ذلك المنتوج، وعللوا ذلك بالتباين القائم بين الأسر اللغوية، فوظفوا هذه الظاهرة توظيفا مغرضا أفضى إلى قولهم بوجود تراتبية عرقية بين الأجناس.

المراجع:

أ ـ بالعربية

1. الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ج1، ط2، 1965.
2. الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني
3. نجيب زكي محمود، المعقول واللامعقول ، دار الشروق، القاهرة، ط4، 1987.

4. ب ـ بالفرنسية:

5. BENVENISTE Emile, Problèmes de linguistique générale, éd. Gallimard, 1966 .
6. BUTTGEN Philippe et autres, (s/d), Les Grecs, les Arabes et nous, enquête sur l'islamophobie savante, éd. Fayard, Paris, 2009.
7. GOUGUENHEIM Sylvain, Aristote au Mont Saint-Michel : les racines grecques de l'Europe chrétienne, éd. Seuil, Paris 2008.
8. LADMIRAL Jean-René, Traduire : théorèmes pour la traduction, éd. Gallimard, 1994.
9. RENAN Ernest, Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, (troisième édition, revue et augmentée) éd. Michel Levy Frères, Paris, 1863.